العرب
السبت 2021/05/29
السنة 43 العدد 12073

وما حاجة الأسد للانتخابات أصلا!

ماجد كيالي
كاتب وسياسي فلسطيني

أمام مشهد الانتخابات الرئاسية في سوريا، أي في بلد بات يفتقد لأي مظهر للسيادة، مع وجود قوات عسكرية لخمس دول على أراضيه، هي الولايات المتحدة وروسيا وإيران وتركيا وإسرائيل، وتتحكم بقراراتها السياسية دولتان هما روسيا وإيران، ومع تشريد قرابة نصف سكانه، والانهيار الاقتصادي الذي يعصف فيه، يجد المرء نفسه أمام حدث سريالي، وتراجيدي، فريد من نوعه، ومثير للحيرة حقا، سواء بالنسبة إلى القريب أو البعيد.ثمة أسباب عديدة تدفع إلى التساؤل والحيرة أهمها:

أولا، أن الرئيس الأسد (الأب)، المؤسس للحقبة الأسدية، جاء إلى السلطة وتحكم بها قبل أزيد من نصف قرن بواسطة انقلاب عسكري (1970) وليس عبر صناديق الاقتراع أو بواسطة الانتخابات.

ثانيا، لا يوجد شيء اسمه تداول على السلطة البتة في سوريا (كما لا يوجد فصل بين السلطات: التشريعية والقضائية والتنفيذية)، فنحن إزاء نظام تسلطي، بكل ما للكلمة من معنى، وفوق ذلك فقد تم تحويل ذلك النظام إلى جمهورية وراثية (جملكية)، فالأب نقل السلطة إلى ابنه، بعد ثلاثين عاما في الحكم (أكثر من فترة الاستعمار الفرنسي!)، وابنه بشار بات له في سدة الرئاسة 21 عاما، وها هو يجدّد لنفسه مرة أخرى، بل ويحضّر ابنه حافظ لوراثته، علما وأن شعار هذا النظام المرشوم في كل حارات ومنعطفات المدن في سوريا هو: سوريا الأسد إلى الأبد.

> بشار الأسد قد يستمر للسنوات السبع القادمة وقد لا يستمر، لكن الأكيد أن سوريا أصبحت مجالا للتلاعب الخارجي وانكمشت إلى مساحة القصر الرئاسي في قمة جبل قاسيون

ثالثا، كل الانتخابات التي جرت في سوريا، سواء للرئاسة أو لمجلس الشعب، كانت مهندسة ومضبوطة، فمرات عديدة كانت عبارة عن استفتاء (في عهد الأب) ثم أضحت مجرد مسرحية (في عهد الابن)، مع وجود مرشحين هم أقرب إلى دمى، لا حياة ولا ريح لهم، أما انتخابات مجلس الشعب التي بالكاد يشارك فيها 10 في المئة في أقصى الحالات، فقوائمها معدة سلفا، ويتم التعامل معها بلا مبالاة، أو كمجرد همروجة، سواء من قبل الشعب أو من قبل النظام.

رابعا، في الأصل لا حاجة للأسد لانتخابات في سوريا، فهي بمثابة لزوم ما لا يلزم، وكأن الأسد يتعمّد عبرها معاقبة السوريين والإمعان في امتهانهم، إذ لا يوجد لها سوى تلك الوظيفة داخليا، لأن الجميع يعلم من هو الفائز سلفا، بدليل الاحتفالات التي أعدت قبل أيام للاحتفاء بفوزه! أما وظيفتها الخارجية فهي الاستهتار بكل القرارات الدولية، والمزايدة على الدول الديمقراطية الغربية، بأنه أيضا ينجح بواسطة الانتخابات.

وفكرة عدم حاجة الأسد للانتخابات مفروغ منها، فهو الذي يسيطر على الجيش وعلى الأجهزة الأمنية التي تتحكم بكل صغيرة وكبيرة في البلد، وهو الذي يسيطر على الموارد وعلى الإعلام، وعلى كل شيء، بما في ذلك سن التشريعات والقوانين، وحل مجلس الشعب.. إلخ.

وفي الواقع فإن أكثر نظام يشبه النظام السوري هو نظام كوريا الشمالية، لمؤسسه كيم إيل سونغ، والمعنى من ذلك أن الأسد لا يقارب حتى اللعبة التي يمارسها أقرب حليفين له، أي روسيا وإيران، ففي الأولى اعتاد بوتين على الإتيان بخليفة صورية له (ميدفيديف)، بعد كل ولايتين، أما في إيران، حيث "الولي الفقيه" هو المرجعية، أو الحاكم الأعلى، فثمة رؤساء يأتون ويذهبون بإشارة منه.

خامسا، في الحقيقة فإن النظام السوري يفتقد أساسا للديمقراطية، فتلك لا يمكن اختزالها بمجرد انتخابات، لأن الديمقراطية تتأسس على دولة المؤسسات والقانون، وهذه غائبة تماما، إذا أكلت السلطة الدولة، أو تغوّلت عليها، وأفرغتها من دورها، أو سخّرتها لمصلحتها.

سادسا، تتأسس الديمقراطية أيضا على المكانة الحقوقية والقانونية للمواطن الفرد المستقل، الذي يتمتع بالحرية والمساواة مع المواطنين الآخرين، وهو الأمر الذي تفتقد له سوريا، بحكم مصادرة النظام للحقوق والحريات، في بلد تحرم فيه الحياة الحزبية وحرية الإعلام وحرية الرأي.

الآن، بحسب المسرحية التي جرت فقد تم انتخاب بشار الأسد رئيسا لولاية جديدة قدرها سبع سنوات، وهي المرة الثانية، التي يحصل فيها ذلك إبان الصراع الجاري في سوريا، إذ المرة الأولى تمت في العام 2014.

وفي الواقع فإن الأسد، في المرتين يبدو مصرا على الاستمرار في سدة السلطة رغم كل الإنهاك والاستنزاف الحاصل في البلد، ورغم معاناة 24 مليونا من السوريين (سواء من الموالاة أو المعارضة)، كأنه في حال انفصام شديد، عن الواقع وعن العالم وعن المنطق. أما بخصوص الفارق بين المرة السابقة وهذه المرة، فيمكن ملاحظته في أنه في المرة الأولى كان الصراع بين النظام والمعارضة في طور الاحتدام والتصاعد، أما في هذه المرة فهو في طور الأفول، إلا أن الأسد هذه المرة يقف، مع أفول أو انحسار المعارضة، أمام تحدي توزع دول النفوذ الخمس في سوريا.

على ضوء ذلك، كما بناء على التجربة السابقة، ربما من الصعب التكهن باقتراب رحيل أو ترحيل الأسد، لأن هذا الأمر لا يزال رهينا بكيفية تصرف الولايات المتحدة الأميركية، ومدى حسمها لمسار اتجاه الدفة في هذا البلد الذي عايش الأهوال. وكما نلاحظ فحتى الآن لا تبدو الإدارة الأميركية في عجلة من أمرها، كونها لا تتأثر بما يحصل في سوريا، لذا فهي حتى الآن تشتغل وفق قاعدة إدارة واستثمار الصراع، بدلا من حله، قناعة منها بأن أي اتجاه ستذهب إليه سوريا سيصب في صالحها.

هكذا، فقد يستمر الأسد للسنوات السبع القادمة، وقد لا يستمر، في سدة الرئاسة، لكن الأكيد أن سوريا أصبحت مجالا للتلاعب الخارجي، وأن سوريا الأسد انكمشت إلى مساحة القصر الرئاسي في قمة جبل قاسيون، رغم انتخاب السيد الرئيس لولاية رابعة.

حماس ودمشق والتحوّل الأخير إلى حركة «حصن» الكبرى

إبراهيم الجبين
كاتب سوري

لم يمنع صمت جيشه عن القصف الإسرائيلي المستمر لعمق الأراضي السورية ولا انشغاله بالتحضير للانتخابات، الرئيس بشار الأسد من اللعب بورقة الحدث الساخن الذي شغل الشرق الأوسط والعالم خلال الأسابيع الماضية، بتدهور الأوضاع في القدس ومن ثم الحرب الصاروخية المتبادلة ما بين غزة وإسرائيل، فقرّر، قبل أيام، استقبال وفد من ممثلي القوى والفصائل الفلسطينية. ونقل موقع الرئاسة السورية أن الاجتماع ناقش آخر المستجدات في الأراضي الفلسطينية، ونقل عن الأسد قوله لضيوفه إن "الكيان الإسرائيلي لا يفهم لغة السلام ولا الحوار".

أما خالد مشعل الرئيس السابق للمكتب السياسي لحركة حماس، فقد اعتاد طيلة أعوام إقامته في دمشق على الجلوس مستعدا لاستقبال ضيوفه بدوره في بيته، وخلفه علّقت صورة ضخمة لقبّة الصخرة كتبت تحتها آيات قرآنية، وفي الخارج كانت تقف المفارز الأمنية التي تتبع للمخابرات السورية المكلّفة بحمايته. صورة أراد لها مشعل، أن تكون رسالة بصرية قبل أن يفتح فمه وينطق بأي كلمة ستأتي. غير أن تلك الرسالة حملت من الارتباك القدر الكافي للكشف عن تلعثم الحركة النضالية الفلسطينية سواء على مستوى الأهداف أو المسار. وفي بيته "المحصّن" ذاك، سألتُ مشعل حينها، سؤالا لعله لم يكن ينتظره "هل حربكم، حرب حماس في فلسطين، حرب تحررية أم حرب دينية؟"، فأجاب بعد تردّد "حرب تحررية طبعا"، فتابعتُ "وماذا تفعل الشعارات الدينية التي خلفك إذن؟". وماذا ستصنع تلك الأفكار بوجدة الشعب الفلسطيني متعدّد المذاهب والأديان الذي يقاوم من أجل حريته؟ فدخل في شروحات طويلة حول علاقة الجهاد بالحرية، ولكنه لم يجب عمّا كان يدور في عقل الفلسطينيين في الشارع الذين بدأ الكثير منهم بالتذمّر من ذلك التماهي المتهافت لقادة حماس مع صورة الأمين العام لحزب الله حسن نصرالله، حتى أن بعضهم علّق بالقول "لم يبق لخالد مشعل وإسماعيل هنية سوى أن يتفقدا غرّة شعر رأس كل منهما، كما يفعل نصرالله من تحت عمامته باستمرار في خطاباته".

التحوّل الذي أسّست له حماس في طبيعة الصراع بين الفلسطينيين والإسرائيليين، بدا مكمّلا لما أرادته أجنحة في الحركة الصهيونية ذاتها، رأت، مبكّرا، أن الإبقاء على علمانية التيارات التي قادت المنادين بتأسيس إسرائيل أمرٌ ضار بالقضية اليهودية، وأنه لا بأس من فتح الباب لحرب دينية يهودية لاسترداد أرض الميعاد. وهذا لم يكن ليعمل بشكل فعّال إزاء مناضلين عرب قادمين من مناخ منفتح يكافح ضد الاستعمار الأجنبي بالمفاهيم التي سادت في الشرق خلال النصف الأول من القرن العشرين.

ولأنه ليس لدى الفلسطينيين من نموذج سياسي حديث يُحتذى به أفضل من نهج الرئيس الراحل ياسر عرفات، الذي عرف كيف يدوّر الزوايا ويمدّ الجسور في الاتجاهات المتناقضة، فقد كانوا حين يريدون التحرّر من عرفات يلوذون بخط الشيخ الفلسطيني عبدالله عزام أستاذ الجهاديين في أفغانستان، الذي أدّى فكره إلى "عولمة الجهاد" وظهور الحركات الإرهابية مثل القاعدة وداعش.

حركة حماس أرادت أن تكون أكثر تشاطرا فتأخذ من عرفات مرونته، ومن عزام تشدّده، فذهبت نحو الاتجاهات كافة، ولم تغلق الباب أمام أكثر أشكال التطرّف خطورة على المنطقة العربية خلال العقود الماضية، إيران الخمينية. وقد ترافق ذلك مع تمدّد الإيرانيين البطيء في سوريا. فعثرت حماس على ضالتها بطرق باب دمشق التي رحّبت، وكان من الجيد بالنسبة إليها لإزعاج السلطة الفلسطينية ومسار المفاوضات، أن تحتوي حماس ومعها الجهاد الإسلامي أسوة بمجموعة الفصائل الفلسطينية التي طوتها تحت جناحها من قبل لأغراض عدّة. فالخدمات التي كانت تؤديها أدوات النظام السوري من الفلسطينيين تجاوزت الساحة الفلسطينية، لاسيما إسهامها في "أسلمة" المقاومة السياسية المدنية والعسكرية اللبنانية والوصول بها إلى ما وصلت إليه اليوم، وأبرز تلك الأدوات كان أحمد جبريل قائد الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين – القيادة العامة، الذي لعب دورا خطير وحساسا أواسط الثمانينات، حين اشتد الصراع الشيعي – الشيعي في لبنان، والذي يروي بنفسه كيف طار إلى طهران ورتّب أوراق الفصائل الشيعية اللبنانية لدى القيادة فيها، وعاد بعد أسبوع ليجمع عباس الموسوي الأمين العام السابق لحزب الله مع الأسد بحضور نبيه برّي.

ولأن حماس منبثقة أساسا عن جماعة الإخوان المسلمين، التي بينها وبين نظام الأسد ما صنع الحداد، فإن دمشق بقيت حذرة في تعاطيها معها منذ البداية، وقد برز هذا حين رفضت طلبا بافتتاح مكتب لحماس في سوريا، مطلع التسعينات، فيما ظلت حماس مصرّة على التقرّب من دمشق، طيلة عقد التسعينات، حتى توجّت تلك المساعي بزيارة مؤسسها الشيخ أحمد ياسين إلى دمشق ولقائه مع الأسد الذي فتح لها المجال للعمل داخل سوريا. واستمرت العلاقة بين الطرفين في تصاعد وتنسيق طالما أن النهج الذي تختطه حماس لا يتعارض مع هيمنة دمشق على أي قرار يُتخذ.

في العام 2011 اتخذت حماس قرارا بتأسيس فصيل "أكناف بيت المقدس" العسكري الذي يتبع لها، بقيادة المرافق الشخصي السابق لمشعل محمد زعموت للعمل في مخيم اليرموك في دمشق، ليكون جزءا من الفصائل السورية المعارضة، ثم أعلنت حماس أنها لا علاقة لها بهذا الفصيل لاحقا. على الرغم من تأييد قادتها للثورة السورية ورفع أعلامها. حتى أن هنيّة وجّه في فبراير عام 2012 كلمة إلى الثوار السوريين خلال خطبة ألقاها في الجامع الأزهر في القاهرة، وقال فيها "أحيّي شعب سوريا البطل، الذي يسعى نحو الحرية والديمقراطية والإصلاح". بعدها مباشرة زار إيران والتقى المرشد علي خامنئي الذي أكّد أنّ "إيران ستبقى إلى جانب الشعب الفلسطيني ومقاومته الباسلة، وأنّ مواقفها تجاه القضية الفلسطينية ثابتة وصادقة، ولن تخذلها أبدا".

> حماس تتقرّب اليوم من نظام الأسد في إطار تنسيقها مع الإيرانيين بغض النظر عمّا سيلحقه ذاك التنسيق بالقضية الفلسطينية وبنظرة العالم إليها من أذى فضلا عن ازدراء الشعوب العربية

وكان من ثمار نهج حماس الإيراني في العام 2014 بروز حركة "الصابرين" الشيعية في غزة واسمها الكامل "حركة الصابرين نصرا لفلسطين" وتعرّف عن نفسها اختصارا بـ"حصن"، وهي مدعومة ماليا من إيران وحزب الله، وكانت قد صنعت على قالب الحوثيين في اليمن، معتبرة على لسان مؤسسها هشام سالم عضو الجهاد الإسلامي المنشق، أن ما يحصل في فلسطين اليوم يشبه ما حصل للإمام الحسين في كربلاء وأن تحرير فلسطين يحتاج إلى حسين جديد.

أشاعت حماس حينها أنها حظرت نشاط "حصن"، غير أن الأخيرة نفت وواصلت عملها السياسي والمالي والتبشيري، وقدّمت التهنئة لإيران بعد توقيع الاتفاق النووي، وأصدرت بيانا نعت فيه مقتل سمير القنطار الذي كان يحارب لدعم النظام في سوريا، وبقيت "حصن" تكبر وتتوسّع حتى طغت مواقفها على مواقف حماس التي أخذت تتبناها حرفيا وترفع صور قاسم سليماني في شوارع غزّة وتعتبره شهيد القدس.

تتقرّب حماس اليوم من نظام الأسد من جديد في إطار تنسيقها مع الإيرانيين، بغض النظر عمّا سيلحقه ذلك التنسيق بالقضية الفلسطينية وبنظرة العالم إليها من أذى، فضلا عن ازدراء الشعوب العربية التي تحتلها إيران لعلاقة حماس الوثيقة مع القوة الغاشمة التي دمّرت بلدانها وهشّمت نسيجها الوطني.

وقد يتمكّن مشعل بتبريره شكر إيران والثناء على الأسد من إقناع السذّج من جمهور حماس، إلا أن الضرر الكبير الذي تسببت وتتسبب به حماس بالقضية الفلسطينية أكبر بكثير من أي ضرر معنوي قد يخلّفه شكر هنية وفريقه للأسد وطهران بسبب دعمهما لما اعتبره انتصارا لغزّة مؤخرا، فقد تمكّنت حماس من تمزيق القضية الفلسطينية إلى قضيتين، وحوّلت التأييد العالمي الكبير الذي حظي به صمود أهل حي الشيخ جراح العرب في القدس، أمام محاولات تجريفهم وتهجيرهم، إلى تنديد ورفض واسعين للإرهاب واستهداف المدنيين بفعل الصورة التي تقدّمها حماس عن ذاتها وعن جهادها واعتدادها بحلفائها الأكثر إجراما في عالم اليوم.